**عوامل بناء الهوية السورية**

د. أشواق عباس

**مركز دمشق للأبحاث والدراسات**

**مِداد**

# **في مفهوم الهوية الوطنية وعوامل بنائها**

تحرص كافة الشعوب على السعي من أجل الحفاظ على تميّزها وتفرّدها قومياً وثقافياً واجتماعياً. الأمر الذي يدفعها إلى الاهتمام بتكوين هويتها الوطنية الخاصة بها، والتي تعبّر عن السمات الخاصة بشخصية أفرادها، وتشكّل الصورة الأولى والفعلية التي تعكس ثقافتهم ولغتهم وعقيدتهم وحضارتهم وتاريخهم. إن كل شيء مشترك بين أفراد مجموعة محددة، أو شريحة اجتماعية تسهم في بناء محيط عام لدولة ما، يُمكن أن يشكّل مدخلاً من مداخل تكوين الهوية، وكلما ازدادت العوامل المشتركة انعكس ذلك في تقوية بناء الهوية الوطنية ومتانتها. كما يسهم بشكلٍ فعال وبارز في التعامل مع الأفراد الممتلكين لتلك العوامل وفقاً للهوية الخاصة بهم.

من هنا، تشكّل الهويات الوطنيّة قواعد تأسيسية لبناء فكرة الدولة المعاصرة، من حيث إسهامها في تكوين المجتمعات المحلية وتنميتها (انطلاقاً من أن مفهوم الهُوية مشتق من الضمير هو، ومعناها صفات الإنسان وحقيقته، والمعالم والخصائص التي تتميز بها مجموع الشخصيات الفردية)، ومن ثم تصنيع وبلورة الشكل الخارجيّ للدولة إزاء الدول الأخرى على المستويين الإقليميّ والدوليّ، (انطلاقاً من أن الهوية هي مجموعة المميزات التي يمتلكها الأفراد، وتسهم في جعلهم يحققون صفة التفرد عن غيرهم. هذه المميزات تكون مشتركة بين جماعة من الناس سواءً أكان ذلك ضمن المجتمع أم الدولة).

# **متى تبنى الهويات الوطنية؟**

ضمن سياق بناء الدولة الحديثة، تمر الدول بسلسلة مراحل وتحولات كبيرة، عادةً ما تكون مرتبطة بأزمات داخلية حادة، أو حروب كبرى. إلا أنها، ورغم ما تشكله تلك المراحل والتحولات الخطيرة من عوامل ضعف وتهديد وتحدٍّ جوهري لتلك الدول، لكنها في المقابل تكون فرصاً حقيقية لحلّ القضايا الإشكالية الكبرى التي تعاني منها تلك الدول، أو لاختبار وإنجاز مكوناتها الوجوديّة الكبرى، وفي مقدمتها مسألة الهوية الوطنية. فما من شكٍ أبداً في أن الوصول إلى مرحلة بناء الدولة الحديثة، يتطلب وضوحاً وجلاءً لكافة الاستحقاقات الكبرى للدولة، والتي يأتي في مقدمتها وعلى رأس أولوياتها مسألة حتمية إنجاز بناء الهوية الوطنية الواحدة والجامعة لكل مكونات المجتمع، كأساس وخطوة أولى في بناء الدولة الحديثة. الهوية التي تشكل الوعاء الوطني الجامع والشامل، الذي يعترف ويستوعب ويعكس كل مكونات المجتمع**،** دون إقصاء أو إلغاء لأي مكون، ويخلقُ منه وبه كياناً قوياً يمثل الجميع. فالهوية الوطنية تقوّي جميع المكونات وتنمّيها داخل الإطار الوطني العام الذي يكبر بكل مكوناته، والسبب الرئيس في ذلك كونها تشكل قاعدة التلاقي والارتكاز والانطلاق المشتركة لكل المجتمع إلى بناء نموذجه الخاص به (والفريد أحياناً)، وتحقيق أهدافه العليا.

**إنَّ الهوية الوطنية تشكل الدستور الضمني، غير المكتوب أو المعلن للدولة، وهي كائن حيّ يعيش ويكبر ويتطور في نفوس أبناء الوطن الذين يؤمنون بها ويطبقون مبادئها، ويحافظون عليها.**

إنَّ الهوية الوطنية تشكل الدستور الضمني، غير المكتوب أو المعلن للدولة، وهي كائن حيّ يعيش ويكبر ويتطور في نفوس أبناء الوطن الذين يؤمنون بها ويطبقون مبادئها، ويحافظون عليها. انطلاقاً من كونها الجزء الأهم في التكوين المعرفي والوجداني والذهني والنفسي للأفراد قبل أن تكون مكوّناً ثقافيّاً وقانونيّاً يرجعون إليه. فكلما تمت تغذية هذا الجزء وتطويره والعناية به، ينمو هذا الكائن الحي ويتطّور، وكلما تمّ إهماله أو انتفاء العوامل المشتركة فيه كان مصيره إلى الضعف والتمزق والهشاشة، وقد ينتهي بالموت.

# **الهوية الوطنية أساس بناء الدولة الوطنية الحديثة**

إن حقائق التاريخ تؤكد على ضرورة البدء بتصميم وتكوين وتمكين لهوية وطنية واحدة وجامعة للمجتمع، كبنية تأسيسية لباقي مراحل وعمليات بناء الدولة الوطنية الحديثة. فأهمية وجود هوية وطنية أو بنائها تكون المقدمة أو المرحلة الأولى من مراحل بناء الدول المعاصرة. إن أهمية وجود الهوية الوطنية تتأسس على جملة من العوامل، أبرزها:

* قدرتها على تحويل التعدد والتنوع الطبيعي للمجتمع إلى ثروة وطنية لتنمية ونهضة المجتمع.
* تحويل الاختلاف والمكونات المتعددة إلى كلٍّ منظم نحو بوصلة وطنية جامعة.
* نزع الخوف النفسي والذهني لدى كل مكون من مكونات المجتمع على حاضره ومستقبله من الإقصاء والحرمان من الحقوق العامة والخاصة.
* الخوف يدفع الإنسان بفطرته إلى التقوقع حول ذاته، ومن ثم العمل على تحصينها وتقويتها تمهيداً للصراع المحتمل والمنتظر مع الآخر. ما يجعل من المجتمع (وإن بدا واحداً في الظاهر) جُزراً منعزلة عن بعضها البعض، متقاطعة أو متباينة المصالح، وجاهزة للصراع الناعم أو المباشر المدمر لكل مقوماته. إن وجود الهوية الوطنية يحول هذه الطاقة والقوة النفسية السلبية والمشحونة داخل الأفراد من الصراع المحتوم (المتوقع حدوثه في أي لحظة، تبعاً للظروف والمشكلات الداخلية، أو استغلال القوى الخارجية) إلى طاقة إيجابية من الاحترام والتعاون والتكامل لبناء المجتمع.
* الهوية الوطنية ترشّد وتنظم رغبات الأكثرية، وتحول دون تجاهلها لمصالح الأقلية، وإذا لم تتم الأمور على هذا النحو، سيسود نوع من التفرد، الذي يثلم بدوره مواد ومقدرات المجتمع.
* الهوية الوطنية تشكل دور المرشد والموجه لكل الفئات لتحقيق الأهداف العليا للوطن، أي أهداف كل المكونات بغض النظر عن حجمها.

# **في بناء الهوية الوطنية السورية**

يُقدّرالعمر الحضاري لسورية بنحو ستة آلاف عام، وإذا ما أخذنا بالحسبان كافة المكوّنات التي شكلت التاريخ الحضاري السوري، منذ العصور القديمة والوسطى مروراً بالحديثة والمعاصرة، سنجد لها مرتسمات واقعية مازالت حية على الأرض السورية. إن أبسط توصيف لتلك المكونات هو الموزاييك المتعدد الأشكال والألوان، التي يجمعها (على تعددها واختلافها) إطار واحد يبرز جماليتها ككل من الخارج، كقطع ملونة ومختلفة مجتمعة إلى جانب بعضها البعض، في مقابل لوحة أخرى قد تكون بلون واحد أو لونين أو ثلاثة على الأكثر. لكن وجود هذا الإطار لا يعني في المقابل دمجها وتوحيدها وإلغاء الفروق والاختلافات فيما بينها، إن قوة وجمالية هذه المكونات المختلفة في كونها متشاركة في إطار واحد، كل مكون يبرز جماليته بتعريفه بالمكون الموجود إلى جانبه، فيبرز ويظهر كعامل قوة وجمال، لكن لو تخيّلنا تحطّم هذا الإطار الجامع، فالصورة القاتمة يمكن تصورها من انفراط الرابط الجامع، انطلاقاً من عدد وحجم المكونات المختلفة والمتعددة. إن هذا التعدد في القوميات والأديان والطوائف والمذاهب، وكذلك التعدد في الآراء والإيديولوجيات والاتجاهات السياسية والفكرية والثقافية، هو نتاج طبيعي لستة آلاف عام من الحضارة والمكونات البشرية المختلفة والمتعددة. من هنا يُمكن تصور إمكانية تنازع وتحارب كل هذه المكونات الحضارية، كما يمكن تصور أن تعيش بشكل مشترك إذا ما اجتمعت على هوية واحدة تحدد انتماءها المشترك وتتوحد عليه. هذا المبدأ بنظرنا، ووفقاً لكل المكونات التي يُمكن أن تسهم في تشكيل الهوية، هو **المواطنة**.

إن هذا المكون يكتسب اليوم ميزة نسبية عن باقي المكونات الأخرى التي تدخل عادةً في تشكيل الهويات الوطنية كالإيديولوجيا، أو الدّين أو غيرها. تلك المكونات التي رغم كونها تشكل عوامل جامعة، إلا أنها طيلة أوقات الحروب وفي أعقابها قد تشكل عوامل اختلاف لا اجتماع.

**إنّ المواطنة هي علاقة بين الفرد والدولة، يحددها دستور الدولة وقوانينها، وتتضمن قدراً من المسؤولية، وترتب للفرد مقداراً من الحقوق، وتلزمه بمقدار من الواجبات.**

فنمط الحرب الكبرى التي تعرضت لها سورية، يُحتّم على كل المكونات المختلفة الاتفاق على بناء عقد اجتماعي جديد يسهم في حل الإشكاليات الوجوديّة الكبرى التي أرّقت العقل الفردي السوري شأن العقل الجمعي. إشكاليات وجودية (تمس بناء الدولة السورية) ظلت حتى يومنا هذا أسئلة بلا إجابات، وثغوراً يلجأ إليها من يرغب من الداخل السوري أو خارجه للضرب بفكرة الدولة أو الهوية الوطنية. هذا العقد الاجتماعي، بين جميع المكونات، ينتج عنه بالضرورة الاتفاق على القاسم أو القواسم المشتركة التي بوساطتها يتم تحصين بناء الدولة السورية الوطنية، وفي مقدمتها مسألة الهوية الوطنية. أي الانتماء للوطنية السورية في وعاء الدولة السورية التي تحقق لجميع السوريين:

* الإحساس بالهوية الجامعة.
* التمتع بالحقوق على قدم المساواة مع الجميع.
* الاستجابة للمسؤوليات والواجبات.
* المشاركة في الحياة العامة بفعالية واندفاع.

إنّ المواطنة هي علاقة بين الفرد والدولة، يحددها دستور الدولة وقوانينها، وتتضمن قدراً من المسؤولية، وترتب للفرد مقداراً من الحقوق، وتلزمه بمقدار من الواجبات.هذا في مفهومها القانوني، إلا أنها في الوقت ذاته (وعبر تبنيها البنيوي في ذهنية الفرد والدولة) تُحصن الهوية الوطنية للدولة عن طريق جملة من الأبعاد، أبرزها:

* العنصر الجوهري في المواطنة هو الانتماء، الذي يعطيها معناها الحقيقي وجوهرها.
* إن حس الانتماء إلى الدولة وإلى الشعب، والتفاعل اليومي والعميق معهما، يعطيان المواطنة جوهرها ويحوّل المرء من مجرد مشارك إلى جزء بنيوي وفاعل، يتبادل معها التأثر والتأثير في عملية تفاعل مستمرة ومثمرة شرطها الأساس المساواة.
* تعمل المواطنة على توليد آليات للعمل المشترك، والسعي نحو تحقيق المصالح العليا والخير العام لكل من المجتمع والدولة، أي للوطن بأكمله.

إن المواطنة تظهر وتترسخ في الهوية الوطنية عبر مستويين: **الأول**، في العلاقة بين الأفراد والدولة، **والثاني**، في العلاقة بين الأفراد بعضهم ببعض، وهما الميدانان الأساسان للهوية الوطنية.

إذا كنا متفقين من حيث المبدأ على أنَّ الهوية الوطنية للمجتمعات تتشكل من جزأين أسَاسيْن: **الأول**، صلب ومتين، ويشكل القاعدة الأساس للهوية (اللغة، التراث التاريخي للمجتمع، الأديان)، أما **الثاني**، مرن، قابل للتغير والتطور (القيم الحاكمة، والمبادئ العليا للدولة، الرؤى والأهداف المستقبلية للدولة)، فإنه، وبالاستناد إلى الوجود التاريخيّ كأحد المكونات التاريخية، وليس للأكثرية العددية، وبالاستناد إلى منظومة من القيم الإنسانية كالحرية والتسامح والإخاء والعدل والمساواة، وحماية وتعزيز حقوق الإنسان والعيش المشترك، وصيانة وتعزيز الحريات العامة والخاصة، على قاعدة الأمن والاستقرار المجتمعي، وكذلك للقيم المشتركة لكافة مكونات المجتمع الواحد والتي تمثل قاعدة الارتكاز الصلبة في بناء المجتمع الواحد. أي التركيب النفسيّ للثقافة، (تكونها من تركيب جزئي وتركيب عام من مكونات مختلفة). فإنَّ مفهوم المواطنة كمكون أكثر ترشيحاً لتشكيل الهوية الوطنية يتعزز عبر بناء منظومة القيم الخاصة بالمواطنة (الاحترام، العدل، المساواة، الالتزام والانضباط، المؤسسات والقانون) كقيمة عامة لسلوك وأداء الأفراد داخل المجتمع. كذلك فإن الرقابة الشعبية القائمة على أسس الإيجابية والتطوع والمبادرة والحكمة والوعي، وكل ما شأنه تعزيز الإرادة الشعبية عبر المؤسسات الفعلية من مجتمع مدني ومؤسسات بحثية (كعامل مكمل وداعم لأدوار ومهام الحكومة ومراقب لها).

**إن حاجة سورية لبلورة هوية وطنية حقيقية يتطلب إرادة شعبية وسياسية تؤمن بالانطلاق من مقولات الواقع قبل مقولات الرغبة، والتأسيس على المواطنة التي تشكل عنصراً جامعاً لمختلف السوريين في ظل تعدد عوامل تباعدهم واختلافهم.**

إن تحقق المواطنة رهن بجملة من العوامل، أبرزها احترام كل الثقافات المختلفة وتفعيل دورها، كذلك احترام كل الأديان والطوائف المختلفة واستيعابها. يضاف إلى ذلك، الإقرار بوجود تيارات سياسية مختلفة، والدعوة إلى فهمها وتفعيلها وفق القانون، واحترام حق الآخر وحريته على قدم المساواة. كذلك التمتع بمنظومة الحريات والحقوق المدنية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي يحفظها الدستور وسيادة القانون.

إن المواطنة تبنى على الحقوق الطبيعية الأصيلة للفرد كإنسان أولاً، ثم كمواطن من الشعب في الدولة ثانياً، وتتحقق وفق أبعاد الهوية والانتماء والتعددية وقبول الآخر والحرية والمشاركة والحقوق المتساوية. أما أبرز مؤشرات بناء وتمكين الهوية الوطنية فهي إنجاز الانتماء الوطني للأفراد الذي يشكل المحتوى الأساس للمواطنة، وهو في الوقت ذاته الهدف الأساس لها. هذا المؤشر يتشكل بفعل التربية ومناخات الحرية وفرص المشاركة الفعالة في الفضاء السياسي المفتوح أمام الجميع، ثم الشعور بالإنصاف والمساواة. يمكن اختتام ما سبق بالقول، إن حاجة سورية لبلورة هوية وطنية حقيقية يتطلب إرادة شعبية وسياسية تؤمن بالانطلاق من مقولات الواقع قبل مقولات الرغبة، والتأسيس على المواطنة التي تشكل عنصراً جامعاً لمختلف السوريين في ظل تعدد عوامل تباعدهم واختلافهم. فالمواطنة هي الشكل الأبهى للهوية الوطنية التي تعزز وجود الإنسان كفرد وحضوره كجماعة.